المحور التاسع: المغرب في الصراع القرطاجي الروماني

إن سقوط قرطاجة عام 146 ق.م. وتحولها لولاية رومانية يمثل منعرجا حاسما في تاريخ المغرب القديم، حيث خاض الطرفان ثلاثة حروب استمرت من 264 ق.م. إلى 146ق.م. عرفت بالحروب البونية ، وقد بدأ هذا الصراع عندما بدأت تتعارض مصالحهما السياسية والاقتصادية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، خاصة بعد أن احتل الرومان وتوسعوا في معظم شبه الجزيرة الايطالية، وأصبحت لهم ممتلكات في جنوب الجزيرة تواجه مناطق النفوذ القرطاجي في البحر الأبيض المتوسط.

وقد سبق الصراع بين القرطاجيين والرومان علاقات ودية بدليل تلك المعاهدات التي أبرت بين الطرفين قبل ثلاثة قرون من اندلاع الحرب بهدف تحديد منطقة نفوذ كل منهما، ثم تحديد الحقوق والواجبات المتبادلة بينهما في مجال النشاط التجاري، ويرجع تاريخ أول معاهدة إلى عام 508ق.م، تلاها عدد من المعاهدات أهمها معاهدة عام 306ق.م [368].

يعد الصراع القرطاجي الاغريقي ممهدا للحروب البونية، حيث جاء نتيجة نفوذ الإغريق وتأسيس مستوطناتهم في "جنوب إيطاليا وكورسيكا وغالة وبرقة" بداية القرن الثامن قبل الميلاد، ولحد قرطاجة من نفوذهم أحدثت مواجهات عسكرية بين الطرفين في مد وجزر[369]، كان أهمها معركة هيميرا في 480 ق.م، التي انكسرت فيها شوكة قرطاجة وقوتها، مما أدى إلى تغيرات كبرى في سياستها تمثلت في انفصال قرطاجة نهائيا عن الوطن الأم صور، والتنكر لضريبة الأهالي والزحف على اراضيهم لتعويض خسارة سفنها الحربية والتجارية، وقيام القرطاجيين برحلات استكشافية للبحث عن موارد وأسواق جديدة منها رحلة خملكان لسواحل اسبانيا وفرنسا وبريطانيا، ورحلة حنون على سواحل الأطلسي[370].

وتوال الصراع القرطاجي الاغريقي والكفة كانت لصالح قرطاجة في صقيلية حيث أخضعتها كلها تقريبا، ووضعت حامية لها في ميسنا (Messina)، حتى ظهر هيرون السرقوسي، ووضع حدا للفوضى الداخلية، وهزم المامرتيين (أشجع القبائل في صقلية كانوا خاضعين لقرطاجة)، في الوقت الذي أخضعت فيه روما كل شبه

الجزيرة الإيطالية (إغريقيا العظمى) وكانت آخرها ريجيوم (Rhigium) في 270 ق.م [371]، وباستلاء قرطاجة على مسينا وروما على ريجيوم أصبحت الدولتان وجها لوجه[372].

I. الحرب البونية الأولى (264-241 ق.م):

1.هزيمة قرطاجة في صقلية:

كانت المصالح التجارية السبب الرئيس لهذه الحرب، سببها المباشر فهو استنجاد مدينة "مسينا" اليونانية بقرطاج، فهبَّت لنجدتها سنة 264 ،ق.م، وهكذا اندلعت الحرب البونية الأولى. دارت بين روما وقرطاج معركتان بحريتان كان الانتصار فيهما حليف روما، ودعَّمته بانتصار ثالث في معركة بحرية أخرى في جنوب صقلية، عندما اعترض الأسطول القرطاجي الأسطول الروماني المتجه لغزو قرطاج في عقر دارها بأفريقيا.

تعزّزت ثقة الرومان بأنفسهم بعد هذه الانتصارات البحرية الثلاثة، وكان ذلك باستعمال طرق جديدة في مهاجمة السفن القرطاجية. وهكذا تيقن الرومان أن قرطاج لم تعد سيدة البحار بمفردها، فعمدوا إلى تحديها ونقل المعركة إلى أراضيها[373].

2.حملة روما إلى شمال افريقيا:

بعد انتصار أكنوموس "Ecnome" سنة 256ق.م انفتح الطريق أمام الرومان الذين نزلوا بسواحل افريقيا، وتقدم ريغولوس "Regulus" [374]،محاصراً قرطاجة، التي اضطرت إلى التفاوض بعد ثورة النوميديين وصعوبة التموين، لكن شروط ريغلولوس القاسية جعلت القرطاجيين يفضلون الدفاع بالاستعانة بالمرتزق الاسبرطي كاسانتيبوس "Xanthippus" الذي ساهمت تجربته العسكرية في اعادة تنظيم الجيش البونيقي والحاق الهزيمة بالرومان في ربيع 255ق.م[375].

وتوالت هزائم الرومان على يد القرطاجيين في عدة معارك في السنوات التالية على التوالي من بينها "253ق.م، 250ق.م،وفي سنة 249 ق.م. تمكن القرطاجيون بقيادة "عزوبعل"" Adherbal" و"قرثلون " "Cartalon" بهزيمة الأسطول الروماني بقيادة بوبليوس كلوديوس، ولكنهم لم يستغلوا الفرصة في الإطاحة

نهائيا بروما في صقلية وجزر البحر المتوسط بل توجهوا إلى التوسع على أراضي نوميديا[376] وذلك لأن روما قد انتهزت فرصة غزو القائد الروماني ريغولوس لتنقضّ على أملاك الدولة القرطاجية[377].

وبتجّدد الصراع في 247 ق.م، دخلت الحرب مرحلتها الأخيرة، حيث تمكنت روما من بناء قوتها من جديد، وعجزت قرطاجة عن دفع أجور المرتزقة الذين ثاروا ضدها في كل من "سيكا وسردينيا"، كما ثار الليبيون الذين أضنتهم الحرب بقيادة ماتوس، مما تسبب في استنجاد سكان بروما التي استغلت الفرصة وفرضت معاهدة جديدة على قرطاجة سنة238ق.م.

تمكن القائد القرطاجي "عبد ملقرت" من إخماد الثورة المرتزقة سنة 238 ق.م بعد ثلاث سنوات وأربعة أشهر من اندلاعها، فحصل على ثقة الشعب بقرطاج الذي عينه حاكماً للبلاد وقائداً للجيش. وسعى "عبد ملقرت" إلى إعادة النظام الديمقراطي بقرطاج، وبذلك نجح في إعادة الهيبة لقرطاج باستتباب الأمن الداخلي وبالتوسع في جنوب إسبانيا لاستغلال مناجم الفضة والذهب بتلك الربوع. واستمر صهره "عزر بعل" في هذا التوجه التوسعي بإسبانيا بعد وفاة "عبد ملقرت" سنة 229 ق.م، وعزّزه خلفه "هنيبعل" بعد وفاة "عزر بعل" سنة 221ق.م، واعتبرت روما أنَّ ما قام به "هنيبعل" من حصار "صاغونتة" الإسبانية هو خرق للمعاهدة المبرمة بين الطرفين سنة 226 ق.م، فاندلعت الحروب البونية الثانية.[378].

II.الحرب البونيقية الثانية (218-201 ق.م):

1- تحالفات ملوك نوميديا:

يشير تيتوس ليفيوس بأن علاقة الصداقة بين قرطاجة ومملكة سيفاكس" نوميديا الغربية" لم تستمر على ماهي عليه، بل نشبت حرب بين الدولتين من جراء انحياز قرطاجة إلى جانب الملك غايا ملك نوميديا الشرقية، ونتيجة لهذه الحرب وميول سيفاكس نحو أعدائها الرومان، عدلت من سياستها وذلك بتراجع قرطاجة عن مساعدة غايا والاقتراب أكثر من سيفاكس حيث زوجته بالأميرة القرطاجية "صفونيزبة" (Sohponisbe)التي شاركته بالحكم الوقت[379].

حاول سيفاكس التوسط بين قرطاجيين والرومان، لأن أمن شمال افريقيا في رأي سيفاكس بات مهددا، بعقد مؤتمر "سيقا" الدولي سنة 206ق.م. الذي تفرق فيه أعضائه دون إيجاد حل لتلك الحرب التي أقلقت الجميع، وبموجب الاتفاق المشار إليه أرسل الملك "سيفاكس" سنة 204 ق.م. مبعوثين للقنصل الروماني سيبيون الذي كان يعسكر في سيراقوصة يخبرونه من أنه إذا نقل الرومان الحرب إلى شمال إفريقيا، فإن جيوش الملك سيفاقس ستحارب إلى جانب القرطاجيين ضد الرومان، غير أن القائد الروماني سيبيون لم يعبأ بذلك، وقد نقل الحرب إلى شمال إفريقيا حيث نزلت الجيوش الرومانية بالقرب من رأس "أبولون " Appolon "وهو ما يعرف حاليا برأس سيدي علي المكي شرقي خليج تونس، ثم حاصروا بعد ذلك مدينة أوتيكا[380].

عندما اشتدت إذاءات ماسنيسان لقرطاجة الذي بعثه أبوه غايا ليقاتل إلى جانب قرطاجة في إسبانيا، بعد أن غير تحالفه بوفاة أبيه غايا وتأكده بأن النصر سيحالف الرومان، غير نظره في القرطاجيين محاولا ربط علاقات جديدة مع الرومان، في نفس الوقت كلفت قرطاجة الملك سيفاكس بحكم المصاهرة والتحالف لرد تلك الاعتداءات، وذلك نظرا لانشغاله أيضا بالحرب الثانية بين روما وقرطاجة، أين كان له أول اصطدام مع ماسينيسان الذي بعثه أبوه غايا ليقاتل إلى جانب قرطاجة في إسبانيا وكان ذلك في 212 ق.م[381].

بعد معركة السهول الكبرى فتح الباب على مصرعيه أمام ماسنسان بعد القضاء على غريمه سيفاكس، خلا الجو لماسنسان وبمساعدة روما استطاع أن يجمع الأجزاء الضائعة من مملكته، فبعد أن فرّ فرمينا الذي فشل في استرجاع مملكة ابيه احتل ماسنسان كامل مازيسيليا إلى غاية نهر ملوية، كما توسع نحو الشرق منتهزا فرصة الظروف الصعبة التي تمر بها قرطاجة[382]، ووحّد المملكة في 203 ق.م[383].

2- الصراع في ايطاليا:

خططت روما لتسمير حنبعل في اسبانيا الذي كان قد خاض مع ابيه هاميلكار حروبا في اسبانيا لمدة سبع سنوات[384]، ولكن يبدو أن الرومان لم يقدروه حق قدره، وكان قد دبر بدوره وسمر القوات

الرومانية بإيطاليا بنقل ميدان الحرب إليها، فكانت بذلك ميادين الحرب البونيقية هي: ايطاليا واسبانيا وافريقيا.

وبوفاة ابيه وصهره صدر بعل تولى قيادة الجيوش مع أخيه صدر بعل، وكان له الدور البارز في الحرب البونيقية الثانية حيث نقل الحرب إلى روما وهدّدها في عقر دارها، بأن عبر البرانس والألب مع خمسين ألف من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان وسبعة وثلاثون فيل.

وبالرغم مما قاساه في رحلته هذه من قساوة الطقس كان عناصر جيشه يموتون أمام عينه ، وكذلك تعرض لمضايقات القبائل الجبلية، إلا أنه عبر البو برفقة عشرين ألف من المشاة وستة آلاف من الفرسان وواحد وعشرون فيل، ونجح في كل مواجهاته: معركة تسيتو (Tessin) في خريف 218 ق.م، ومعركة تربيه (Terbie) في ديسمبر 218 ق.م، ومعركة ترايزمين (Lac Trasimène) في جوان 217 ق.م[385]، ومعركة معركة كاناي (Cannae) في أوت 216 ق.م[386].

3- الصراع في اسبانيا:

بعد الانتصار البحري الأول للأخوين بوبليوس وكينيوس سكيبيو عند مصب نهر الايبرو سنة217ق.م ، واسترجاع ساغنتة والانتصار على صدر بعل سنة 216 ق.م ، الذى عجز عن الالتحاق بشقيقه في ايطاليا، وصل الرومان إلى الوادي الكبير (Guadal quivir) ، وعقدوا حلفا مع سيفاكس ، ملك نوميديا الغربية ضد قرطاجة [387].

بعد هزيمة ووفاة الاخوين سكيبيو سنة 211 ق.م والتراجع الى ما بعد الايبرو تحت الضغط البونيقي – النوميدي (ملك ماسنسان) ، أرسلت روما بوبليوس كورنيليوس سكيبيو - سكيبيو الافريقي - الى اسبانيا سنة 210 ق.م ، واستولى على قرطاجنة سنة 209 ق.م ، وهزم صدر بعل الذي تمكن من الافلات بعد اشتباك عنيف مع سكيبيو سنة 208 ق.م ، واجتاز جبال البرانس ، ووصل غالة التي قضى بها فصل الشتاء قبل أن يجتاز في الربيع الموالي جبال الالب لدعم شقيقه، لكن الهزيمة كانت الى جانبه في معركة ميتور يونيو - يوليو 207ق.م ، حيث لقي مصرعه .

وقد عاد النصر مرة أخرى حليف سكيبيو سنة206ق.م، وتوغل الرومان في اسبانيا الجنوبية، وبذلك عاد سكيبيو إلى روما حيث انتخب قنصلا، وبدأ يحضر للحملة على افريقيا[388].

4-الصراع في افريقيا:

أسرعت قرطاج، أمام هذا الخطر الداهم إلى استدعاء حنيبعل من جنوب إيطاليا. والتقى الجيش القرطاجي بقيادة حنيبعل بالجيش الروماني بقيادة سبيون في معركة «جامة» زاما، الواقعة على بعد 8كلم من مدينة سليانة الحالية، وقد نزل حنبعل في حضرموت وبها أعدّ لمعركته الفاصلة زاما (19 أكتوبر 202ق.م)، وقد كان سكيبيو قد حضّر لمعركته بان تحالف مع ماسينيسا الذي كان قد انتصر على غريمه سيفاكس، وفي المواجهة اعتمد حنبعل على الفيلة في المقدمة ولكن ماسينيسا قد أشار على سكيبيو بأن أحداث فجوات واسعة بين صفوف الفيلة وبث الذعر فيها بقرع الطبول، ثم تنظيم حركة التفاف عندما ترجع على أعقابها وتشتت الجيش ليستغل سكيبيو وماسينيسا الفرصة ويهاجما حنبعل وجيشه، وانهزم هذا الأخير وعلى إثر ذلك اضطرت قرطاجة إلى القبول بمعاهدة زاما في 201 ق.م[389]، وهزم جيش قرطاج هزيمة ساحقة بسبب الدور الذي لعبه الجيش النوميدي الحليف لروما والمعادي لقرطاج. وتم إثر هذه الهزيمة إبرام معاهدة بين الطرفين سنة 201ق.م، ثبتت تفوق روما، وشلت القدرات العسكرية لقرطاج وخاصة البحرية منها، واقتصر نفوذها على المجال الترابي بعد أن استولى مسنسان قائد الجيش النوميدي على قسم كبير منها[390].

<u>بنود معاهدة زاما 201 ق.م:</u>

-أن تحتفظ قرطاجة باستقلالها (لا تقيم روما حامية عسكرية فيها) وتحتفظ بكل ممتلكاتها في إفريقيا التي كانت لها قبل بداية الحرب الثانية.

-أن تسلم قرطاجة كافة العبيد الفارين والأسرى لروما.

-أن تسلم قرطاجة ما تملكه من سفن باستثناء 10 سفن ثلاثية وكل الفيلة وتمتنع عن ترويضها من جديد.

-أن لا تدخل قرطاجة في حرب دون موافقة روما.

-أن تعيد لماسينيسا كل أراضيه وأراضي أسلافه.

-أن تمد قرطاجة جيش روما بالمؤن والأجور لثلاثة أشهر حتى تتم المصادقة على المعاهدة.

-أن تدفع قرطاجة غرامة مالية حربية تبلغ 10000 وزنة أوبية من الفضة على أقساط موزعة على 50 سنة.

-أن تسلم قرطاجة 100 رهينة يختارها القائد لا تقل أعمارهم عن 14 ولا تزيد عن 30 كضمان لتنفيذ بنود المعاهدة [391].

حاول هنيبعل بعد هزيمة «جامة»، أن يُصلح ما فسد من النظام الإداري والسياسي بقرطاج وخاصة الشؤون المالية والقضائية لكن الطبقة الأرستقراطية لم يرقها هذا الإصلاح لأنه مس مصالحها، فتواطأت مع روما للتخلص منه سنة 195 ق.م، فاضطر هنيبعل للجوء إلى أرخبيل قرقنة، ومن مرفأ تسرسينا خرج ليلاً متجهاً إلى صور. وبعد مناورات قام بها الرومان لإفساد سمعته لدى من حلَّ في بلاطاتهم من ملوك آسيا الصغرى قرر هنيبعل أن ينتحر حتى لا يقع في قبضة الرومان، وكان ذلك سنة 183ق.م، وعمره 63سنة[392].

III. الحرب البونيقية الثالثة (149-146 ق.م):

1.توسع ماسنسان على أراضي قرطاجة:

اختلفت التحالفات بعد الحرب البونيقية الثانية، حيث انتقلت نوميديا من حليف لقرطاجة إلى عدو، وحليف يسهر على مصالح روما في المنطقة، خاصة وان هذه الاخيرة قد منحت ماسنسان حق استرجاع أملاك أجداده، فامتدت على إثر ذلك حدود مملكة نوميديا شرقا عام 170 ق.م، وشملت 70 مدينة كانت تحت سيطرة القرطاجيين، كما استولى على المدن الساحلية التجارية الواقعة على الساحل الشرقي بشمال وجنوب قابس والتي كانت تمثل عصب التجارة القرطاجية بين الصحراء الافريقية وعالم المتوسط.

وقد كان ماسينيسا يهدف من خلال توسعه على حساب قرطاجة من بسط نفوذه عليها وتوحيد بلاد المغرب تحت قيادته، وعلى الرغم من أن ماسينيسا كانا حليفا لروما إلا أنها كانت تعلم بما يترتب عن تلك المطامح الإقليمية من مخاطر على المصالح الرومانية المتنامية في إقليم البحر الأبيض المتوسط، فكان قرار تدمير قرطاجة حرمان ماسينيسا من أن تصل يده إلى قرطاجة وبالتالي قطع الطريق أمامه[393].

2 .تدمير قرطاجة:

استغل ماسينيسا بندا من بنود معاهدة الذي يخول له باسترجاع ممتلكاته وممتلكات أجداده من قرطاجة، وسعى للتوسع على حسابها والتي بدورها تجهّزت للحرب دفاعاً على أراضيها، وهو الأمر الذي تذرّعت به روما للتدخل سنة 149 ق.م بدعوى خرق بند من بنود معاهدة زاما، وهو أن قرطاجة أعلنت حربا دون استشارة روما التي كانت ترقب أعمال ماسنسان دون أن تحرّك ساكناً، وبذلك باتت نوايا روما ظاهرة للعيان بحيث لم تكن تنتظر إلا سببا مباشرا يمكّنها من بسط نفوذها على الأراضي الافريقية على الرغم من ان ماسنسان كان حليفا لها، فأرسل الرومان حملة إلى افريقيا سنة 149 ق.م بجيش يتألف من ثمانين ألف من المشاة وما يقارب أربعة آلاف فارس، في بداية ربيع 149ق.م، بقيادة القنصلين: "ماركوس مانيليوس" على الجيوش البرية، أما "لوكيوس ماركيوس كونسورينيوس" على الجيوش البحرية[394].

وقد أعلن القرطاجيون قبولهم التفاوض مع ما يترتب عليهم من شروط رومانية، غير أنهم سرعان ما تراجعوا عن ذلك بعد ان اشترطت عليهم روما الخروج من قرطاجة وبناء مدينة جديدة بعيدة عن البحر،

فقرّروا المواجهة وتحضروا لذلك في مدة قصيرة، لكن سكيبيو استولى على المدينة التي دمرها وأعلنها مقاطعة رومانية وفصل بينها وبين أراضي المغاربة بخندق ملكي يسمى (Fossa Regia)[395]، وبذلك تنطفئ هذه المدينة التي حكم عليها بالإعدام بعد الحرب البونيقية الثالثة، وتحولت أراضيها إلى مقاطعة رومانية سنة 146ق.م، بعد اشعاع دام أزيد من ستة قرون(814-146ق.م).

3. وراثة العرش النوميدي:

اختلف الإخوة الثلاثة فيما بينهم بعد وفاة والدهم في سنة 148 ق.م بعد أن أعلنت روما حربها على قرطاجة وقطعت الطريق عليه، وربما فهم ماسينيسا أخيرا أهداف روما في المنطقة فقد ردّ على طلب القيادة الرومانية بتزويده بالرجال بقوله "سأرسلهم إليكم عندما أرى أنكم في حاجة إليهم"[396].

استغلت روما وفاته بتقسيم المملكة النوميدية، ولذلك كان على سكيبيو أميليانوس أن يجعل على رأس المملكة حكما ثلاثيا بين أبناء ماسينيسا الثلاثة: مكيبسا (مكوسن/ مسيبسا)، وغلوسة ومسطنبعل، مدعيا بأن ذلك كان موجودا عند النوميديين في مدينة دوقة ومكثر، حيث كانت تسير من قبل ثلاثة شوفات، ولكن ذلك كان في الحقيقة بنية تقسيم نوميديا وإضعافها[397]، وقد توفي كل من مسطنبعل وغلوسة بعد وفاة والدهما بسنوات قليلة يقول سالوست بسبب المرض دون ان يكون لهما تأثير سياسي في المملكة، وانفرد مكيبسا بالحكم متبعا سياسة والده بأن يحافظ على ولائه لروما، خاصة وان فترة حكم مكيبسا اتسمت بالاستقرار ومجاملة الرومان[398]، حيث انفرد موكسن بالحكم بعد وفاة أخويه ودام حكمه ثلاثين سنة[399].

وتجدر الإشارة إلى أنه بعد وفاة الملك مكوسن كانت نوميديا قد دخلت طورا جديدا تميز بالانحطاط الفكري والصراعات اللامتناهية. وقد حاول بعض الملوك أن يعيدوا لها مكانتها، ويتمثل ذلك في الملكين "يوغرطة" و"يوبا الأول"، إلا أنهما أخفقا في ذلك، ومما زادها اضطرابا تدخل الرومان المباشر في شؤونها الداخلية وكذلك دور الجاليات الأجنبية لاسيما الإيطالية منها والتي كانت متمركزة في مدينتي سيرتا عاصمة المملكة وباجة بتونس، وذلك ما عرف خلال التاريخ النوميدي بفترة الضعف والتبعية اللذين مرت بهما الدولة النوميدية[400].